# الإمام الدارقطني: المحدّث الناقد

د. الصادق بن ساسي كرشيد(*)

## مُقَدِّمَة:

يمثل القرن الرابع الهجري ـ الموافق للقرن العاشر الميلادي ـ العصر الذي سجل بلوغ الحضارة الإسلامية أوجها، بالرغم مما شهدته هذه المرحلة من تمزُّق سياسي، حيث ظهرت خلافة فاطمية بإفريقية، وأخرى أموية بالأندلس، وثالثة عباسية ببغداد، لم تفلح جميعها ـ بالرغم ما أبدته من قوة ـ في وضع حد للفوضى الداخلية، فضلاً عن فشلها في التصدي للأطماع الخارجية(1).

إنَّ ما شهدته هذه الفترة من اضطراب سياسي وتدهور اقتصادي، بالعراق على وجه الخصوص، لم يمنع من بروز مناخ فكري مشجع على البحث العلمي، وناصر لكل محاولات الإبداع في مختلف المجالات، بفضل ما أقيم من مؤسسات ثقافية، ورصد من أموال لتحفيز وتكريم ذوي الهمم العالية، وما المناظرة الشيقة التي أوردها التوحيدي في الامتاع والمؤانسة بين أبي سعيد السيرافي ومتى بن يونس في المفاضلة بين النحو العربي والمنطق اليوناني إلا خير دليل على ما حققته مسيرة الفكر من تقدُّم، وبلغته من نضج، ولم يكن الموروث الديني عموماً والحديث النبوي منه على وجه الخصوص بالغائب عما حدث، حيث

(*) أستاذ الحديث المساعد بجامعة الزيتونة ـ تونس.

(1) ابن الأثير (٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٦٩/٨، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، والديني، والثقافي، والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ٢٣٥.

أصبح الحديث عِلْماً قائماً بذاته، له قواعده، وأصوله، وأعلامه، نذكر من بينهم: محمد بن عمر العقيلي (٣٢٢هـ ـ ٩٣٣م)، وعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (٣٢٧هـ ـ ٩٣٨م)، وابن حبان البستي (٣٥٤هـ ـ ٩٦٥م)، والحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي (٣٦٠هـ ـ ٩٧٠م)، وسليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ ـ ٩٧٠م)، والحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ ـ ١٠١٤م)، وغيرهم ممن عاصرهم الدارقطني واستفاد من خبراتهم.

## نشأة الدارقطني العلمية

وُلِدَ علي بن عمر بن أحمد الدارقطني البغدادي، المكني بأبي الحسن، في اليوم الخامس من ذي الحجة من سنة ٣٠٦هـ ـ ٩١٨م، أثناء خلافة المقتدر بالله على أرجح الأقوال[١]، في بيت يولي اهتماماً بالغاً بالعلم وأهله، إذ أنَّ والده كان من الرواة الثقات لحديث رسول الله ﷺ، كما أثبت ابنه ذلك برواته عنه في أكثر من موضع[٢].

**[أ] رحلاته العلمية:**

تميَّز الدارقطني منذ صغره برغبة ملحة في الإقبال على طلب العلم، غير مبالٍ بما يعترض سبيله من صعوبات، قال القواس: "كنا نمرُّ على البغوي،

(١) السمعاني (٥٦٢هـ): الأنساب مجلس دائرة المعارف العثمانية الهند ٢٧٣/٥ – ٢٧٥, ابن خلكان (٦٨١هـ): وفيات الأعيان، دار السعادة، القاهرة، ص ٢٩٧ .

(٢) الدار قطني : السنن، دار المحاسن، القاهرة، ٩٩/١ ، ٢٥٢ ، ١٠٣/٢ ... الخ

والدارقطني صبي يمشي خلفنا، بيده رغيف عليه كامخ[1]، فدخلنا إلى ابن معين ومنعناه، فقعد على الباب يبكي"[2]. الأمر الذي يسَّر له تحمُّل كم هائل من الحديث، والإحاطة بالكثير من جوانبه، وهو ما زال في حدود العاشرة من عمره[3].

استمر الدارقطني على هذا النهج، يجالس كبار علماء بغداد وما جاورها، متحيناً الفرصة للخروج الى بقية المراكز العلميّة، إلى أنْ يسَّر الله له ذلك، فكانت أول مدينة يدخلها الكوفة، حيث تحمل عن محمد بن القاسم المحاربي وعبد الله بن يحي البخي، كما التقى فيها مرة ثانية بأستاذه في بغداد الحافظ محمد ابن القاسم بن زكريا السُّوداني[4]، أمَّا في البصرة فكان من المجالسين لمحمد بن سليمان المالكي[5]، هذا وقد سمح له مروره بمدينة واسط إدراك عبد الله بن محمد الواسطي[6]، وأحمد بن عيسى بن السكين، الذي كان قد تتلمذ عليه ببغداد في مرحلة متقدمة[7].

(١) الكامخ : نوع من الأدم. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٧١١هـ)، دار إحياء التراث العربي، مادة كمخ.

(٢) المدخلي ربيع بن هاني: بين الإمامين مسلم والدارقطني، المطبعة السلفيّة، الهند، ١٩٨٢م، ص ٢٢.

(٣) الذهبي (٧٤٨هـ): تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٩٩٢/٣–٩٩٣.

(٤) الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ): تاريخ بغداد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٣٧/١٢ .

(٥) الذهبي: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، دار إحياء المعارف، بيروت، ٣/ ٥٧٢.

(٦) الدارقطني (٣٨٥هـ): المؤتلف والمختلف، دار الغرب الإسلامي، ٤/ ١٨٢٥.

(٧) ن م س ١٣٠٣/٣.

لقد استطاع الدارقطني تحقيق مكاسب علميّة جمة من وراء ترحاله بين مختلف تلك العواصم الثقافية، إلاَّ أنَّ كل ذلك لم يمنعه بالرغم من تقدُّم سنه من شد الرحال إلى مصر[1] مروراً ببلاد الشام والحجاز[2]، ولئن تحفظ البعض عن رحلته إلى مصر بسبب نزوله في ضيافة الوزير ابن خنزابة[3]، وما جناه من أموال جزاء تصنيفه مسنداً للوزير المذكور[4]، المذكور[4]، ذلك لا يخل في الحقيقة من مروءة الدارقطني، ولا ينقص من منزلته ـ كما ادّعى البعض ـ حيث ثبت أنَّ ابن خنزابه لم يكن كغيره من الحُكَّام المستبدين الذين اكتوى المسلمون بظلمهم، وعانوا من فسادهم طويلاً، بل كان وزيراً أميناً، وحاكماً عادلاً، وعالماً جليلاً، مما جعل الذهبي يثني عليه قائلاً: "الإمام، الحافظ، الثقة، الوزير الأكمل"[5]، كما أشاد به السلفي فقال: "كان ابن خنزابه من الحُفَّاظ الثقات، المتبجحين بصحبة أصحاب الحديث، جلالة ورياسة، يروي ويملي بمصر في حال وزارته، ولا يختار على العلم وصحبة أهله شيئاً"[6].

ومن ناحية ثانية فإنَّ الدارقطني لم يجعل علمه حكراً على ذوي السلطان، بل كان طيلة إقامته بأرض الكنانة على اتصال دائم بأهلها، يبلغهم ما وقف

(١)ابن حجر العسقلاني (٨٥٦هـ): تهذيب التهذيب، دار الفكر، ١٩٨٤م، ٤/ ٢٧٥ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٤٥٧/١٦.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت، ٣١٧/١١.

(٤) تاريخ بغداد، ٧/ ٢٣٤- ٢٣٥.

(٥) سير إعلام النبلاء، ٤٨٤/١٦.

(٦) ن م س ١٦/ ٤٨٥.

عليه من حقائق، وما توصَّل إليه من نتائج في أكثر من علم، وفي مقدمتها حديث رسول الله ﷺ، مجيباً عن استفساراتهم، فأعجبوا به وأحبوه، بعد أنْ اكتشفوا نبوغه، وأدركوا تمام حفظه[1].

هذا وقد غادر الدارقطني مصر تاركاً وراءه ذكرى طيبة لدى العام والخاص، بل ولفيفاً من الطلبة الحُفَّاظ على رأسهم عبد الغني بن سعد الأزدي، الذي كان خير خليفة لأستاذه، كما تنبأ له الدارقطني بذلك يوم خروجه والناس يودعونه باكين: "تبكون وعندكم عبد الغني بن سعيد، وفيه الخلف"[2]. فضلاً عمن تتلمذ عليهم من الأساتذة الحُفَّاظ الذين كثيراً ما أعلن اعتزازه بهم، وثناءه عليهم، مثل: علي بن أحمد الأزرق[3]، وعمر بن جعفر الحنبلي[4]، وعبد الله بن جعفر الصيرفي[5]، ثناءه على من عرفهم من أعلام خوزستان، التي أصرَّ على زيارتها قبل أنْ يستقر آخر أيامه ببغداد متصدراً للإقراء[6].

**[ب] أبرز شيوخه:**

(١) تاريخ بغداد، ١٢ / ٣٥ .

(٢) تذكرة الحُفَّاظ ٣/ ١٠٤٨.

(٣) المؤتلف والمختلف، ٨٣٧/٢.

(٤) ن م س ٩٥٠/٢.

(٥) ن م س ٢/ ٩٤٧.

(٦) وفيات الأعيان، ٣/ ٢٩٧.

التقى الدارقطني بالكثيرين من أعلام عصره في مختلف المناطق التي زارها، فضلاً عمن عايشهم ببغداد، إلاَّ أنَّ من استفاد منهم أكثر، وَفقاً لتصريحاته، وتبعاً لما ورد في مصنفاته هم على ما يبدو:

[١] الإمام المحدِّث عبد الله بن محمد البغوي (٣١٧هـ ـ ٩٢٩م)، الذي كان كلامه في الحديث كالمسمار في الساج، كما شهد له الدارقطني بذلك[١].

[٢] إمام القُرَّاء أحمد بن موسى بن مجاهد (٣٢٤هـ ـ ٩٣٥م)[٢].

[٣] اللُّغوي المحدث محمد بن القاسم (٣٢٨هـ ـ ٩٣٩م)[٣].

[٤] محدِّث الكوفة الحافظ أحمد بن محمد بن عجمان الكوفي، المعروف بابن عقبة، (٣٣٢هـ ـ٩٤٣م)[٤].

[٥] شيخ أهل الحديث وصاحب المسند الكبير دعلج بن أحمد بن دعلج السجزي (٣٥١هـ ـ٩٦٢م)، الذي سمع منه الدارقطني كتاب: "الضعفاء" للنسائي[٥].

(١) البداية والنهاية، ١٦٣/١١-١٦٤، تذكرة الحُفَّاظ ٧٣٧/٢.

(٢) الحموي (٦٢٦هـ): معجم الأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، ٦٥/٥، لابن النديم (٤٣٨هـ): الفهرست، طهران، ١٩٨١م، ص ٤٧ .

(٣) البداية والنهاية، ١١/ ١٩٦، وفيات الأعيان، ٣٤١/٤.

(٤) تاريخ بغداد، ١٤/٥–١٨، تذكرة الحُفَّاظ ٨٣٩.

(٥) تذكرة الحُفَّاظ ٨٨١/٣–٨٨٢، معجم المؤلفين، ٤/ ١٤٥.

[٦] المفسِّر المقرئ محمد بن الحسن بن محمد الموصلي، المعروف بالنقاش، (٣٥١هـ ـ ٩٦٢م)[١].

[٧] محدّث بغداد الحافظ محمد بن المظفر البغدادي (٣٧٩هـ ـ ٩٨٩م)، الذي كان الدارقطني لا يستند بحضرته إجلالاً وتعظيماً له[٢].

إنَّ إصرار الدارقطني على الاستفادة من أعلام عصره أجبره على اتباع أكثر من مسلك في الأخذ عنهم، فمنهم من تحمل عنه بوساطة السماع، وهي الطريقة الأكثر اعتماداً في مصنفاته، ومنهم من أخذ عنه بوساطة القراءة[٣] أو الإجازة[٤]، كما اضطر في مناسبات أخرى إلى اعتماد الوجادة[٥]، وهو ما مكَّنه من جمع مادة على مستوى عال من التنوُّع والثراء، ساعدته مع مرور الأيام على بلوغ مراده.

**[ج] مكاسب الدارقطني المعرفية:**

**[١] التبحُّر في علوم كثيرة:**

حيث استطاع منذ وقت مبكر التميُّز عن أقرانه في أكثر من فن، وفي مقدمتها علوم اللُّغة، بما غذى به المكتبة العربية من مصنفات، مثل: "غريب

(١) البداية والنهاية، ٢٤٢/١١، تذكرة الحُفَّاظ ٣/ ٩٥٧.

(٢) تاريخ بغداد ٢٦٤/٣، شذرات الذهب في أخبار من ذهب: لابن العماد الحنبلي (١٠٨٩هـ)، مكتبة المقدسي، القاهرة، ٩٦/٣.

(٣) السنن، ٣١٢/١ ، ٣٨/٢ ، ١٣٣، المؤتلف والمختلف، ٤٠١/١ ... الخ

(٤) المؤتلف والمختلف، ٥١٤/١ ، ٧٤٤/٢ ، ٨٩٤ ... الخ

(٥) السنن، ٢٦٩/١ ، ٣٠٨ ، المؤتلف والمختلف، ٥٢٥/١ ... الخ

اللُّغة"[1]، و"غريب الحديث"[2]، و"تصحيف المحدثين"[3]. فضلاً عن اجتهادته اجتهادته اللُّغوية الرصينة التي نوّه بها أكثر من عالم[4]، فعن الأزهري أنَّ "أبا الحسن الدارقطني لما دخل مصر كان بها شيخ علوي من أهل مدينة رسول الله ﷺ، يقال له مسلم بن عبد الله، وكان عنده كتاب: "النسب" عن الخضر بن داود عن الزبير بن بكار، وكان مسلم أحد الموصوفين بالفصاحة المطبوعين بالعربية، فسأل الناس أبا الحسن الدارقطني أنْ يقرأ على مسلم بن عبد الله كتاب: "النسب"، ورغبوا في ذلك، فأجاب إلى ذلك، واجتمع في المجلس من كان بمصر من أهل العلم، والأدب، والفضل، فحرصوا على أنْ يحفظوا على أبي الحسن الدارقطني لحنة أو يظفروا منه بسقطة، فلم يقدروا على ذلك، حتى جعل مسلم بن عبد الله يقول له: وعربية أيضاً"[5].

وكما كان الدارقطني على دراية كبيرة باللُّغة العربية نطقاً وكتابة فقد كان كذلك من الحافظين لأشعار العرب، قال الخطيب معدّداً علومه: "ومنها أيضاً المعرفة بالأدب والشعر، وقيل أنَّه كان يحفظ دواوين جماعة من الشعراء، وسمعت حمزة بن محمد بن ظاهر الدقاق يقول: كان أبو الحسن الدارقطني يحفظ دواوين

(١)عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، ٧/ ١٥٧ – ١٥٨.

(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة الحلبي، ١٢٠٨/٢.

(٣) السيوطي (٩١١هـ): تدريب الراوي شرح تقريب النووي، مطبعة السعادة، القاهرة، ٢١٩/٢.

(٤) تاريخ بغداد، ٢٤/١٢، ابن الصلاح (٦٤٣هـ) : علوم الحديث، دار الفكر، دمشق، ص ٢٥٤ – ٢٥٥ .

(٥) تاريخ بغداد، ٣٥/١٢ .

السيد الحميري في جملة ما يحفظ من الشعر"[1]. وهو ما أكَّده ابن خلكان[2]، ولقد تجلّى اطلاعه الواسع بشكل أوضح من خلال حسن استشهاده بالشعر، مع إصراره على نسبة كل بيت الى صاحبه في الغالب معرّفاً بالمغمورين من الشعراء[3] والشاعرات[4]، متفنناً في نظم الأشعار كلما دعته الحاجة، من ذلك قوله:

حديث الشفاعة في أحمد ... إلى أحمد المصطفى نسنده
وجاء حديث بإقعاده ... على العرش أيضاً فلا نجحده
أمر الحديث على وجهه ... ولا تدخلوا فيه ما يفسده[5]

ويبدو أنَّ ما بذله الدارقطني من جهود في سبيل إجادة صناعة الكلام نثراً ونظماً ـ فضلاً عن سعيه الدؤوب لاكتساب معارف أخرى ـ مكَّنه من معرفة مواقع كثيرة[6]. وهو ما ساعده على تصويب عديد الأخطاء في هذا المجال[7]، مستعيناً بأفضل ما توفَّر بين يديه من مصنفات قيمة كـ: "التاريخ الكبير"، و"التاريخ الصغير" لمحمد بن اسماعيل البخاري، وكما أفلح الدارقطني في

(١) تاريخ بغداد، ١٢ / ٣٥.
(٢) وفيات الأعيان، ٢٩٨٣.
(٣) المؤتلف والمختلف، ٥٣٤ ، ٩٨١ ، ١٠٩٨ ...الخ
(٤) ن م س ١٥٩٨ ... الخ
(٥) الذهبي: مختصر العلو للعلي الغفار في صحيح الأخبار وسقيمها، ص ٢٥٣ – ٢٥٤ .
(٦) المؤتلف والمختلف، ١٧٠ ، ١٨٢ ، ٥٥٤ ، ١٠٢٢ ، ١١٤٦ ...الخ
(٧) ن م س ت ٥٠٠ ...الخ

تعريف قراءه بمواقع عدة؛ فقد وُفِّقَ كذلك في تعريفهم ببعض الأفراد[1] والفِرَق والجماعات[2]، معتمداً على خيرة ما صنّف في الأنساب، والطبقات، والمغازي، والسير، مثل: كتاب: "جمهرة نسب قريش وأخبارها" للزبير بن بكار (٢٥٦هـ ٨٦٩م)، وكتابيْ: "الطبقات الكبرى" و"المغازي" لمحمد بن عمر الواقدي (٢٠٧هـ ـ ٨٢٢م)، وكتاب: "المغازي والسير" لموسى بن عقبة بن أبي عياش (١٤١هـ ـ ٧٥٨م) وغيرها.

العلم الآخر الذي نبغ فيه الدارقطني كان فن القراءات، التي أولاها كذلك عناية فائقة منذ صغره، بتتلمذه على خيرة أعلام عصره في هذا الميدان كأبي بكر النقاش، وأبي الحسن بن بويان، وأحمد بن محمد الديباجي، وعلي بن سعيد بن دؤابة، فضلاً عن سماعه كتاب: "السبعة" من ابن مجاهد، وهو ما مكَّنه من تصنيف كتاب مختصر مؤجر، قال الخطيب البغدادي: "وسمعتُ بعض من يعتني بعلوم القرآن يقول: لم يسبق أبو الحسن إلى طريقته التي سلكها في عقد الأبواب المقدمة في أول القراءات، وصار القُرَّاء بعده يسلكون طريقته في تصانيفهم ويحذون حذوه" [3]، وقد أبرز شمس الدين الجزري قيمة هذا المصنّف فقال: "ولم يعرف مقدار هذا الكتاب إلاَّ من وقف عليه ولم يكمل حسن كتاب

(١) المؤتلف والمختلف، ٢٣٧.

(٢) ن م س ٩٥٩ ، ١٢٦٧ ، ١٣٩١ ...الخ

(٣) تاريخ بغداد، ١٢ / ٣٤ – ٣٥ .

"جامع البيان" إلاَّ لكونه نسج على منواله، وروى عنه الحروف من كتابه هذا محمد بن ابراهيم بن أحمد"[1].

هذا وقد كشف الدارقطني عن تبحُّره في هذا المجال أيضاً، ببيانه لأصوب القراءات في ثنايا مصنفاته، إلى جانب تعريفه المختصر المفيد بالكثير من القُرَّاء المغمورين من مختلف ربوع العالم الإسلامي[2]، ولذلك حق له التصدُّر آخر أيامه للإقراء، ويصبح من كبار رواد هذا الفن في عصره، وأحد المراجع المتميزة لمن جاء بعده.

**[٢] سلامة التوجُّه العقدي وشدة التمسُّك بعقيدة السلف:**

كما يتجلى ذلك في مختلف مصنفاته، المطبوع منها والمخطوط، مثل: "السنن"، و"الضعفاء والمتروكون"، و"المؤتلف والمختلف"، و"كتاب الصفات"، و"كتاب رؤية الله تعالى"، و"كتاب فضائل الصحابة"، و"كتاب أخبار عمرو بن عبيد وكلامه في القرآن وإظهار بدعته"، حيث كان طيلة حياته المجادل الحكيم والخصم العنيد لكل من أساء لعقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، وتبعاً لذلك فلا يلتفت إلى من اتهمه بالتشيُّع بحُجَّة حفظه لديوان السيد الحميري[3]، إذ كيف يمكن اقتداؤه بشاعر كان يعلم سلفاً أنَّه ممن اشتهروا بسبّهم للسلف في أشعارهم؟[4]، وهو ما استغربه السيوطي أيضاً[1]، ورفضه

(١) غاية النهاية في طبقات القراء للجزري (٨٣٣هـ)، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ٥٥٩/١ .

(٢) المؤتلف والمختلف، ١٣٣٧ ، ١٣٤٤ ، ١٩٣٤ ...الخ

(٣) تاريخ بغداد، ٣٢٠/١٢ .

(٤) المؤتلف والمختلف، ١٣٠٨/٢ – ١٣٠٩ .

الذهبي رفضاً مطلقاً مؤكداً سلفية الدارقطني[٢]، وأنَّه كان العمدة في السُّنَّة، والخبير بمذهب السلف.

**[٣] استقلالية المنحى الفقهي:**

لما اشتهر به من عُمق في التحليل، وبراعة في التعليل، كما شهد له ابن تيمية بذلك "والدارقطني هو أيضاً يميل الى مذهب الشافعي وأئمة السُّنَّة والحديث، لكن ليس هو في تقليد الشافعي كالبيهقي، مع أنَّ البيهقي له اجتهاد في كثير من المسائل، واجتهاد الدارقطني أقوى منه، فإنَّه كان أعلم و أفقه منه"[٣]. وهو ما برز بكل وضوح في كتابه: "السنن" على وجه الخصوص، الذي دلَّ مضمونه دلالة صريحة على أنَّ صاحبه كان من العارفين بالفقه، والمطلعين على مختلف مذاهبه. قال البغدادي متحدثاً عن تنوُّع معارف أبي الحسن: "ومنها المعرفة بمذاهب الفقهاء، فإنَّ كتاب: "السنن" الذي صنَّفه، يدلُّ على أنَّه كان ممن اعتنى بالفقه، لأنَّه لا يقدر على جمع ما تضمن ذلك الكتاب إلاَّ من تقدّمت معرفته بالاختلاف في الأحكام"[٤].

لقد كان الدارقطني شافعي المذهب[٥]، كما أكَّد ذلك كبار المصنفين في طبقات الشافعية كالسبكي[١]، والحسيني[٢]، إلاَّ أنَّ ذلك لم يمنعه من الانفتاح على

---

(١)طبقات الحُفَّاظ للسيوطي (٩١١هـ)، مكتبة وهبة، القاهرة، ص ٣٩٤ .

(٢) سير إعلام النبلاء، ٤٥٧/١٦ .

(٣)مجموع الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٧٢٨هـ)، الدار العربية، ٤١/٢٠.

(٤) تاريخ بغداد، ٣٤/١٢ .

(٥) وفيات الأعيان، ٣/ ٢٩٧ .

بقية المذاهب، والاستنارة بما توصَّل إليه غيره، رافضاً بذلك كل مظاهر التعصُّب، وصنوف الإنبتات، الذي جنح إليه البعض، فضلوا وأضلوا ، فكان بذلك من أوائل الداعين إلى التقريب بين المذاهب، توحيداً لكلمة الأُمَّة.

## الدارقطني المحدث

يتبيَّن من خلال كل ما سبق ذكره أنَّ الدارقطني قد تتلمذ على نخبة من كبار علماء الحديث، كما تمكَّن بفضل نشوءه في بغداد و ما تيسَّر له دخوله من بلدان الاطلاع على عدد وافر من خيرة المصنفات في علوم شتى، وفي مقدمتها علم الحديث، فإلى أيّ حد وفّق الدارقطني في الاستفادة من كل ذلك في نطاق خدمته لعلوم الحديث دراية و رواية؟

إنَّ المتتبع لما جاء على ألسنة من ترجموا للدارقطني يلاحظ أنَّ الرجل "صار أوحد عصره في الحفظ، والفهم، والورع، و إمام القُرَّاء والنحويين"[٣]، بل و من أحسن الناس كلاماً على حديث رسول الله ﷺ في وقته، شأنه في ذلك شأن علي بن المديني و موسى بن هارون في زمانه، كما صرَّح عبد الغني الأزدي[٤].

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٧١١هـ)، طبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٩٦٤م، ٣/ ٤٦٢ .

(٢) طبقات الشافعية للحسيني (١٠١٤هـ)، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص ١٠٢.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى، ٣١١/٢.

(٤) تاريخ بغداد، ٣٦/١٢ .

وما كان للدارقطني أنْ يبز غيره في مخبلف هذه الفنون و يحظى بكل تلك الشهرة إلاَّ بفضل ما بذله من جهود ـ دون توقُّف ـ في سبيل الاستزادة من العلم، والسعي الحثيث إلى نشره بمختلف الوسائل المشروعة بين العامة والخاصة، في مختلف المناطق التي مرَّ بها أو أقام فيها، مع تصديه ـ بحكمة ـ لكل محاولات النيل من دينه أو التشكيك في كفاءته.

**[أ] تلاميذ الدارقطني:**

بقدر ما تعدَّد شيوخ الدارقطني، وتنوَّعت مشاربهم، فقد كان عدد تلاميذه و الرواة عنه أغزر، نظراً لعلو منزلته، وذيوع صيته، وتعدُّد رحلاته. وكفى الدارقطني فخراً أنْ يكون من بين تلاميذه نسبه عالية من كبار الحُفَّاظ، مثل:

[١] الحسين بن حمد البغدادي الصيرفي (٣٨٨هـ ـ ٩٩٨م)، الذي أجابه الدارقطني عن أسئلته بشأن رجال الصحيحين الذين ذكرهم النسائي في كتاب: "الضعفاء"[(١)] .

[٢] شيخ الشافعية إسماعيل بن أحمد الإسماعيلي الجرجاني (٣٩٦هـ، ١٠٠٥م)، الذي سمع من الدارقطني كتاب: "الغرائب والأفراد"، و صنَّف كتابيْ: "تهذيب النظر في أصول الفقه" و"الأشربة"[(٢)] .

[٣] رأس المتكلمين على المذهب الشافعي محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني (٤٠٣هـ ـ١٠١٢م)، المقلب بسيف السُّنَّة، ومجدّد الدين على رأس المائة

(١) تذكرة الحُفَّاظ ١٠١٧/٣، شذرات الذهب، ١٢٨/٣

(٢) شذرات الذهب، ١٤٧/٣، معجم المؤلفين، ٢٥٧/٢.

الرابعة، الذي سخَّر قلمه للرد على الفِرَق الضالة، ويكفي أن نذكر من مصنفاته: " مناقب الأئمة "، و"نقض المطاعن عن سلف الأُمَّة"، و"أسرار الباطنية"، و"إعجاز القرآن"[1].

[٤] الحافظ الكبير محمد بن عبد الله النيسابوري (٤٠٥هـ، ١٠١٤م) العارف بالحديث وفنونه، بالشكل الذي جعل رياسة هذا العلم في "خراسان"، بفضل ما صنَّفه من كتب قيمة، مثل: "المستدرك على الصحيحين"، و"معرفة علوم الحديث"[2].

[٥] أحمد بن محمد المخزومي المعروف بالبرقاني (٤٢٥هـ، ١٠٣٢م) شيخ الفقهاء والمحدثين، الذي وثّقه الخطيب قائلاً: "كان ورعاً، ثبتاً، لم نر في شيوخنا أثبت منه، وكتابه: "المسند" خير شاهد على ذلك"[3].

[٦] أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (٤٣٠هـ ـ ١٠٣٨م) تاج المحدثين، وأحد أعلام الدين في عصره، من أشهر أعماله: "المستخرج على الصحيحين"، و"معجم الصحابة"، و"دلائل النبوة"، و"حلية الأولياء"[4].

[٧] عبد بن أحمد بن محمد الهروي (٤٣٤هـ ـ ١٠٤٢م) الحافظ المالكي، الذي روى عن الدارقطني كتابه: "الضعفاء والمتروكون"، وقد صنَّف كتباً كثيرة، من

(١) البداية والنهاية، ٣٥٠/١١، شذرات الذهب، ١٦٩/٣ .

(٢) البداية والنهاية، ٣٥٥/١١، شذرات الذهب، ١٧٦/٣ .

(٣) البداية والنهاية، ٣٦/١٢، شذرات الذهب، ٢٢٨/٣.

(٤) البداية والنهاية، ٣٦/١٢، شذرات الذهب، ٣/ ١٠٩٢.

أبرزهـا: "المخـرج علـى الصـحيحين"، و"الجـامع"، و"فضـائل القـرآن"، و"فضائل مالك"[1].

هكذا استطاع الدارقطني المساهمة في إعـداد جيـل مـن المحـدثين، الحُفَّـاظ، العاملين، المخلصين، الذين بدا تأثيره فيهم بيّناً، واقتداؤهم به أبين، إذ كثيراً مـا احتجوا به، فضلاً عن ثناءهم عليه وإشادتهم به أينما حلوا .

**[ب] مصنفاته :**

إنَّ عالماً جليلاً كأبي الحسن انتهى إليه علم الأثر و المعرفة بعلـل الحـديث وأسماء الرجال وأحوالهم لم يكتف ببث العلوم في صدور طلبتـه، و الإجابـة عـن استفسارات معاصريه، بل انطلق منذ أنْ رأى في نفسه المقدرة علـى الكتابـة إلى التنقيب في آثار أسلافه، مصوباً تارة ومرجحاً أخرى، فضلاً عن إضـافاته الجـادة في أكثر من مجال معرفي وَفق منهج علمي تميَّز صاحبه بالكثير من حسن النظـر، والتعليل، والانتقاد، فأجاد وأفاد ـ كما ذكر ابن كثير ـ[2].

ولئن استطاع الدارقطني التطرُّق إلى أغلب المباحث الحديثية بمزيـد البيـان تارة، والإضافة أخرى، فإننا ـ وللأسف الشديد ـ لم نعثر إلاَّ على النـذر اليسـير من مصنفاته، التي أبرزت ما اتسم به الدارقطني من صرامة في البحـث، وأمانـة في النقل، ونزاهة في الحكم.

**أولاً : آثاره المطبوعة :**

(١) البداية والنهاية ٥٠/١٢، شذرات الذهب، ٢٥٤/٣.

(٢) البداية والنهاية، ٣١٧/١١ .

[١] كتاب السنن، الذي كان محل عناية متواصلة من طرف عديد العلماء على مرَّ الزمان، نظراً لما يتميز به من أهمية لدى علماء الحديث و أئمة الفقه، على اختلاف مشاربهم، باعتبارها أحد الموارد التي لا يقدر باحث في العلوم الإسلامية الاستغناء عنها[١].

[٢] المؤتلف و المختلف[٢] .

[٣] الضعفاء و المتروكون[٣] .

[٤] ذكر أسماء التابعين ومن بعدهم، ممن صحت روايته من الثقات، وذكراه في كتبيهما الصحيحين أو أحدهما على حروف المعجم[٤].

[٥] الالزامات على صحيحي البخاري و مسلم[٥].

(١) تصحيح وتحقيق السيد عبد الله هاشم، طبعة دار المحاسن للطباعة، القاهرة، من أشهر ما ألّف بشأنه: "التحقيق المغني على الدارقطني"، لمحمد شمس الحق العظيم آبادي: و كتاب: "المختصر"، لأحمد بن علي العرياني (٧٧٨هـ ـ ١٣٧٦م)، وكتاب: "تخريج الأحاديث الضعاف في كتاب السنن"، لأبي محمد عبد الله الجمال الجزائري (٦٨٢هـ ـ ١٢٨٤م)، وكتاب: "تخريج الأحاديث الضعاف في كتاب السنن"، لأبي محمد عبد الله الجمال الجزائري (٦٨٢هـ ـ ١٢٨٤م)، وكتاب: "السماعون لسنن الدارقطني"، لعبد الرحمن بن يوسف المزي، وكتاب: "من تكلّم فيه الدارقطني في كتاب السنن من الضعفاء و المتروكين و المجروحين" لمحمد بن عبد الرحمن بن زريق الحنبلي (٨٠٣هـ ـ ١٤٠٠م).

(٢) دراسة وتحقيق موفق بن عبد الله بن عبد القادر، طبعة دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٦هـ

(٣) تحقق عبد العزيز عز الدين السيروان وموفق بن عبد الله بن عبد القادر وغيرهما .

(٤) دراسة وتحقيق بوران الضناوي وكمال يوسف الحوت، طبعة مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٦هـ ١٩٨٥م .

(٥) تحقيق مقبل بن هادي بن مقبل، طبعة دار المكتبة السلفية، المدينة المنورة .

[٦] ذكر قوم أخرج لهم البخاري و مسلم في صحيحيهما، وضعَّفهم النسائي في كتاب: "الضعفاء"[١] .

[٧] تعليق و استدراكات للدارقطني على كتاب: "المجروحين" لابن حبان[٢].

[٨] العلل[٣].

[٩] التتبُّع، وهو نفس الكتاب الذي يحمل عنوان: "الاستدراك"[٤].

[١٠] أحاديث "الموطأ"، وذكر اتفاق الرواة عن مالك، و اختلافهم فيه، وزياداتهم ونقصانهم[٥].

[١١] أحاديث النزول[٦].

[١٢] صحيفة همام[٧].

[١٣] أخبار عمرو بن عبيد، وكلامه في القرآن، وإظهار بدعته[٨] .

[١٤] جزء الجهر بالبسملة في الصلاة[٩].

---

(١) تحقيق موفق بن عبد الله بن عبد القادر .

(٢) مطبوع بهامش كتاب: "المجروحين" لابن حبان الطبعة الهندية .

(٣) تحقيق محفوظ الرحمن زين الله السلفي، طبعة دار الرياض، المملكة العربية السعودية .

(٤) تحقيق مقبل بن هادي بن مقبل ، طبعة دار المكتبة السلفية، المدينة المنورة .

(٥) تحقيق عزت العطار الحسيني ، طبعة مكتب الثقافة الإسلامية، ١٣٦٥هـ.

(٦) تحقيق علي بن محمد الفقيهي ، سلسلة عقائد السلف، بيروت، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٥م .

(٧) تحقيق صاح مهدي عباس ، طبعة مؤسسه الرسالة .

(٨) طبعة المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، ١٩٧٦م .

(٩) نشر شركة الطباعة الفقهية، القاهرة، ١٩٦٦م .

[١٥] ألا جواد[١] .

[١٦] سؤالات الحاكم النيسابوري ( ٤٠٥هـ ـ ١٠١٤م)، للدارقطني في الجرح و التعديل[٢].

[١٧] سؤالات محمد بن الحسين السلمي (٤١٢هـ ـ ١٠٢١م)، للدارقطني في الجرح والتعديل[٣].

[١٨] سؤالات حمزة بن يوسف السهمي (٤٢٥هـ ـ ١٠٣٣م)، للدارقطني وغيره من المشائخ في الجرح والتعديل[٤] .

[١٩] سؤالات أحمد بن محمد البرقاني (٤٢٥هـ/ ١٠٣٣م)، للدارقطني في الجرح و التعديل[٥].

هذه بعض المصنفات التي تمكّنتُ من حصرها و الاطلاع على بعضها، ومما لا شك فيه أنَّ هناك مؤلَّفات أخرى لأبي الحسن، قد تكون طبعت أو هي بصدد الطبع مما لم تسمح لي الظروف بالوقوف عليها.

**ثانياً: الآثار المخطوطة:**

ترك الدارقطني كماً هائلاً من المصنفات النفيسة، اختلف الباحثون في تحديد عددها النهائي، ونظراً لذلك فسأكتفي بذكر ما ثبتت لديّ صحة نسبته

(١) نشره محمود الطحاني، كما نشره أيضاً وجاهى حسين باسم: "كتاب الأسخياء"، ١٩٣٤م .

(٢) دراسة وتحقيق موفق بن عبد الله بن عبد القادر، مطبعة المعارف، الرياض .

(٣) دراسة و تحقيق خليل حسن حماده ، طبعة الرياض .

(٤) دراسة وتحقيق موفق بن عبد الله بن عبد القادر ، طبعة مكتبة المعارف، الرياض .

(٥) دراسة وتحقيق خليل حسن حماده ، نشر عبد الرحيم القشقري، المدينة المنورة .

للدارقطني، مجتنباً الخوض في غيره، وهي على التوالي: "الأحاديث التي خولف فيها إمام دار الهجرة مالك بن أنس[1]، أحاديث الوضوء من مس الذَّكَر[2]، اختلاف الموطآت[3]، الإخوة والأخوات[4]، أربعون حديثاً من مسند بريد بن عبد الله بن أبي بردة[5]، أسماء الصحابة التي اتفق فيها البخاري و مسلم، وما انفرد به كل منهما[6]، أسماء التابعين ومن بعدهم ممن صحت روايته عند مسلم[7]، أطراف الغرائب والأفراد[8]، أطراف موطأ الإمام مالك[9]، أطراف مراسيل موطأ الإمام مالك[10]، الأفراد والغرائب من حديث رسول الله[11]، الأمالي[12]، تسمية من روى عنه من أولاد العشرة[13]، تصحيف المحدثين[14]،

(١) سير أعلام النبلاء، ٨ / ٧٧ .

(٢) تاريخ بغداد، ١٢/ ٣٨ .

(٣) الغنية في فهرس شيوخ القاضي عياض للقاضي عياض اليحصبي (٥٤٤هـ)، دار الغرب الإسلامي، ص ٩٩.

(٤) تهذيب التهذيب، ٤٢١/٨ .

(٥) تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين، النهضة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٤٢٤/١.

(٦) تاريخ التراث العربي، ٤٢٢/١ .

(٧) تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ، الطبعة العربية، دار المعارف، مصر، ٢١١/٣ .

(٨) البداية و النهاية، ١١/ ٣١٧ .

(٩) سير أعلام النبلاء، ٧٧/٨ .

(١٠) ن م س ٨/ ٤٧ .

(١١) المؤتلف والمختلف، ١٥٤.

(١٢) البداية و النهاية، ٣١٧/١١ .

(١٣) المؤتلف والمختلف، ٤٤/١ .

(١٤) بين الإمامين مسلم والداقطني، ص ٢٧.

الجرح والتعديل[١]، جزء فيه من حدّث ونسي[٢]، حديث أبي إسحاق إبراهيم بن بن محمد يحيى المزكي النيسابوري عن شيوخه[٣]، حديث عمر الكتاني[٤]، حواشي على ضعفاء ابن حبان[٥]، خماسيات السنن[٦]، ذكر قوم أخرج لهم البخاري ومسلم في صحيحيهما وضعَّفهم النسائي في كتاب: "الضعفاء"[٧]، ذكر من روى عن الشافعي[٨]، الذيل على التاريخ الكبير للبخاري[٩]، رؤية الله تعالى[١٠]، رباعيات الإمام محمد بن إدريس الشافعي[١١]، رسالة من أبي الحسن الدارقطني إلى طاهر بن محمد الخاركي، في بيان خطأ أبي حفص عمر بن جعفر بن عبد الله الوراق فيما انتقاه على أبي بكر الشافعي خاصة[١٢]، رسالة في بيان

(١) تهذيب التهذيب، ١٤/١ .

(٢) تدريب الراوي، ٣٣٦/١ .

(٣) سنن الدارقطني، ١٦٨/١ .

(٤) تاريخ بغداد، ٢٦٩/١١.

(٥) تاريخ بغداد، ٢٦٩/١١.

(٦)الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السُّنَّة المشرفة للكتاني (١٣٤٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٤٤ .

(٧) المؤتلف والمختلف، ٤٦/١ .

(٨) تهذيب التهذيب، ٩٠/١ .

(٩) المؤتلف والمختلف، ٤٦/١ .

(١٠) ن م س ٤٦/١ .

(١١) تاريخ الأدب العربي، ٢١١/٣ – ٢١٢ .

(١٢) الرسالة المستطرفة، ص ٩٨ .

ما اتفق عليه البخاري و مسلم، وما انفرد به أحدهما على الآخر[1]، رسالة في ذكر روايات الصحيحين[2]، الرمي والنضال[3]، الرواة عن مالك بن أنس[4]، سؤالات أبي ذر عبد بن أحمد الهروي للدارقطني[5]، سؤالات أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني للدارقطني[6]، سؤالات الحافظ أبي محمد عبد الغني بن سعيد سعيد الأزدي للدارقطني[7]، الضبيين[8]، عشرون حديثا منتقاة من كتاب الصفات[9]، غرائب مالك[10]، غريب الحديث[11]، غريب اللُّغة[12]، الغيلانيات[13]، فضائل الصحابة[14]، الفوائد المنتجة من حديث أبي بكر محمد بن النقاش (٣٥١هـ،

(١) المؤتلف والمختلف، ٤٦/١ .

(٢) تاريخ الأدب العربي، ٥١٤/١ .

(٣) المؤتلف والمختلف، ٤٧/١ .

(٤) الإعلان بالتوبيخ الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للخاوي (٩٠٢هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت. ص ٦٠٤.

(٥) المؤتلف والمختلف، ٤٨/١ .

(٦) ن م س ٤٨/١ .

(٧) تاريخ بغداد، ٨/ ٣٦٠ .

(٨) المؤتلف والمختلف، باب غنيم، وباب غمر .

(٩) ن م س ٤٧/١ .

(١٠) ن م س ٤٩/١ .

(١١) تاريخ الأدب العربي، ٢١١/٣ – ٢١٢ .

(١٢) كشف الظنون، ٢ / ١٢٠٨ .

(١٣) الرسالة المستطرفة، ٩٢ .

(١٤) تاريخ الأدب العربي، ٢١٢/٣ .

٩٦٦م)[١]، الفوائد المنتخبة من حديث أبي الحسن علي بن إبراهيم بن حماد الأزدي (٣٥٦هـ ـ ٩٦٦م)[٢]، الفوائد المنتخبة من حديث أبي سليمان الحراني (٣٥٧هـ ٩٦٧م)[٣]، الفوائد لأبي بكر أحمد بن يوسف بن خلاد العطار (٣٥٩هـ ٩٦٩م)[٤]، الفوائد المنتخبة من حديث أبي علي محمد بن أحمد بن الحسن المعروف بابن الصواف (٣٥٩هـ ـ ٩٦٩م)[٥]، الفوائد المنتخبة من حديث أبي بحر بحر محمد بن الحسن البربهاري(٣٦٢هـ ـ ٩٧٢م)[٦]، الفوائد المنتخبة من حديث أبي الحسن علي بن عبد الله بن الفضل بن العباس بن محمد البغدادي (٣٦٣هـ ـ ٩٧٣م)[٧]، الفوائد المنتقاة عن الشيوخ العوالي لأبي الحسين محمد عبيد الله بن أحمد بن معروف البغدادي (٣٨١هـ ـ ٩٩١م)[٨]، الفوائد المنتخبة من من حديث أبي عمر محمد بن العباس بن زكريا المعروف بابن حيوية (٣٨١هـ ٩٩١م)[٩]، الفوائد المنتقاة لأبي بكر محمد بن عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن الحسين الكاتب الكرخي (٣٨٨هـ ـ ٩٩٨م)، الفوائد المنتخبة من حديث أبي

(١) تاريخ بغداد، ١١/ ٣٠٤ .

(٢) تاريخ بغداد، ٣٣٩/١١

(٣) ن م س ٢٤٢/٢ .

(٤) تاريخ الأدب العربي، ٣٨٧/١ .

(٥) ن م س ٣٨٣/١ .

(٦) تاريخ بغداد، ٢٦٠/٢ .

(٧) تاريخ بغداد، ١٢ / ٦ .

(٨) تاريخ التراث العربي، ٤١/١ .

(٩) المؤتلف والمختلف، ٥٣/١.

الحسن أحمد بن محمد بن الحسين بن إسحاق الضرير الرازي[1]، الفوائد المنتخبة العوالي من الشيوخ الثقات[2]، الفوائد المنتقاة الغرائب الحسان[3]، الفوائد المنتخبة والمنتقاة الغرائب العوالي[4]، القراءات[5]، القضاء باليمين مع الشاهد[6]، المدبج[7]، المساجد[8]، المستجاد من الحديث[9]، مسند أبي حنيفة[10]، أبي الفضل جعفر بن محمد المعروف بابن خنزابة بتخريج الحافظ أبي الحسن الدارقطني[11]، المسند الكبير لدعلج بن أحمد السجزي (٣٥١هـ ـ ٩٦٢م)[12]، مقدمة الضعفاء والمتروكين من المحدثين[13].

(١) ن م س ٤ / ٤٣٥ .

(٢) المؤتلف والمختلف، ٥٢/١ .

(٣) ن م س ١ / ٥٠ .

(٤) ن م س ١ / ٥٠ .

(٥) تاريخ بغداد، ١٢ /٣٤ – ٣٥ .

(٦) فتح المغيث فتح المغيث للسخاوي (٩٠٦هـ)، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ٣٣٤/٢ .

(٧) بين الإمامين مسلم والدارقطني، ٢٧ .

(٨) البداية والنهاية، ١١ / ٣١٧ .

(٩) اكشف الظنون، ١٤٥٨ .

(١٠) المؤتلف والمختلف، ٥٥/١ .

(١١) تاريخ بغداد، ٢٤٣/٧ .

(١٢) ن م س ٨ / ٣٩٢ .

(١٣) فهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في دروب العلم وأنواع المعارف، لابن خير الأشبيلي (٥٧٥هـ)، ص ٢٠٩.

## الدارقطني الناقد

يتضح من خلال كل ما سبق عرضه أنَّ الدارقطني كان على مستوى عالٍ من الإحاطة بأغلب فروع تخصُّصه، حيث غطت مصنفاته أكثر مباحث علم الحديث صعوبة و خطورة، ملتزماً في تقديمها أبدع طرق وأساليب العرض، مما جعلها تصبح موارد أساسية لكل المتخصّصين في هذا المجال، حيث أنَّ الناظر في المتناول منها يلاحظ أنَّ صاحبها لم يكن مجرد جامع للنصوص، بل كان دائم المقارنة والترجيح بينها، مؤيداً تارة ومعارضاً أخرى، بناء على ما توفَّر لديه من الحُجَج والبراهين.

ونظراً لكثافة المادة فسأحاول الكشف عن جهود الدارقطني النقدية، من خلال ما كانت له من مساهمات في تعديل الرواة و تجريحهم، والكشف عن علل الحديث.

**[أ] الجرح والتعديل:**

إنَّ المتتبع لأسماء مصنفات أبي الحسن المطبوع منها و المخطوط يتبيَّن له أنَّ الرجل اهتم اهتماماً فائقاً بهذا الفن، نظراً لما له من دور في حماية السُّنَّة النبويَّة من كل محاولات التحريف بالزيادة أو النقصان، ويُعَدُّ ما ورد في كتابيْ: "السنن" و"الضعفاء والمتروكين" إلى جانب ما ذكر في كتب "السؤالات" خير شاهد على ذلك، سواء من حيث نوعية المادة المقدمة أو الشكل الذي وردت وَفقه، وهو ما تتطلب من أبي الحسن الكثير من الوقت والجهد والصبر بحكم ما التزم به من تعمُّق وتوسُّع في معالجة مختلف ما اعترض سبيله من

مسائل، الأمر الذي دفع بمحمد بن زريق ـ على سبيل المثال ـ إلى تصنيف كتاب خاص بـ "من تكلَّم فيه الدارقطني في كتاب السنن من الضعفاء والمتروكين والمجروحين"[1].

**إنَّ أهم ما يتميَّز به منهج الدارقطني في تتبُّعه لأحوال الرواة يتجلى بالخصوص في النقاط التالية:**

[١] اكتفاء الدارقطني في مناسبات كثيرة بما توصَّل إليه غيره من أئمة الجرح والتعديل من نتائج، حيث استعان بشعبة بن الحجاج (١٦٠هـ ـ ٧٧٦م)، ومالك بن أنس (١٧٩هـ ـ ٧٩٥م)، وعبد الله بن المبارك (١٨١هـ ـ ٧٩٧م)، وسفيان بن عيينة (١٩٨هـ ـ ٨١٣م)، ويحيى بن معين (٢٣٣هـ ـ ٨٤٧م)، وعلي بن المديني (٢٣٤هـ ـ ٨٤٨م)، وأحمد بن حنبل (٢٤١هـ ـ ٨٥٥م)، ومحمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ ـ ٨٦٩م)، وأبي زرعة الرازي (٢٦٤هـ ـ ٨٧٧م)، ومسلم (٢٧٢هـ ـ ٨٨٥م)، وأبي داود السجستاني (٢٧٥هـ ـ ٨٨٨م)، والنسائي (٣٠٣هـ ـ ٩١٥م)، وغيرهم ممن اطمأن إليهم ووثق بهم.

[٢] إنَّ اعتماد الدارقطني على ما توصَّل إليه غيره ممن يعتد بهم من أئمة هذا الفن لم يمنعه في بعض المناسبات من معارضتهم، لعدم اقتناعه بما أطلقوه من أحكام، مما يكشف عن تمام معرفته بأحوال الرواة واعتزازه برأيه، قال السلمي: "وسألته عن أبي حامد الشرقي، فقال: ثقة، مأمون، إمام، فقلت: لم تكلم فيه ابن عقدة؟ فقال: سبحان الله، وترى يؤثر فيه مثل كلامه، ولو كان بدل

(١) تاريخ التراث العربي، ١ / ٥١١ .

ابن عقدة يحيى بن معين؟ قلت: وأبو علي الحافظ كان يقول ذلك، فقال: وما كان محل أبي علي، و إنما كان مقدماً في الصنعة أن يسمع كلامه في أبي حامد ـ رحمه الله ـ، أبو حامد صحيح الدين، صحيح الرواية"[1].

وقال السلمي: "سألت الدارقطني لِمَ ترك البخاري سهيلاً في الصحيح؟ فقال: لا أعرف له عذراً"[2]، وكذلك كان موقفه لما سُئِلَ عن راوٍ آخر، فقال: "أثنى عليه أحمد، وليس هو عندي بالقوي"[3]، رافضاً إجازة عبد الله بن موسى الاصطخري، بالرغم من أنَّ شيخه دعلج كان يحدثهم عنه[4].

وغير ذلك من المواقف الجريئة التي ما كان لأبي الحسن أن يقفها لولا أمانته وحذقه لصناعته، التي دأب على حمايتها من كل ما من شأنه أن يحدث فيها الخلل، و يثير الشكوك حولها، قال أبو الحسن: "جئت شيخاً عنده "الموطأ"، وكان يقرأ عليه وهو يتحدث مع القوم، فلما فرغ من القراءة قلت: أيُّها الشيخ يقرأ عليك وأنت تتحدث؟ فقال: كنت أسمع فلم أرجع إليه"[5].

[٣] اجتهد الدارقطني وهو يمارس عملية الجرح والتعديل في مَدِّ الباحث بفوائد جليلة متعلقة بالمترجم لهم، حيث لم يهمل التعريف بالإخوة والأخوات

(١) سؤالات حمزة بن يوسف السهمي للدارقطني وغيره من المشائخ في الجرح والتعديل، للدارقطني، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٨٤م، ص ٣٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء، ٣/٥٠٨ .

(٣) تهذيب التهذيب، ١/ ١٢٠ ، ١٤٦ .

(٤) سؤالات الحاكم النيسابوري للدارقطني في الجرح و التعديل، للدارقطني (٣٨٥هـ)، مكتبة الرياض، ١٩٨٤م، ص ١٣٠ .

(٥) سؤالات السهمي للدارقطني، ص ١٣٤ .

منهم، والكشف عن كُنى من عرفوا بأسمائهم، وأسماء من اشتهروا بكُناهم، فضلاً عن تحديده لحرفهم، ومواطنهم، وأماكن تحديثهم، وسماعتهم، وطبقاتهم، غير متغافل عن المتفق والمفترق من الأسماء، والكُنى، والأنساب، مما يجعل الباحث في منتهى الاطمئنان الى ما توصَّل إليه الدارقطني من نتائج، فاتحاً بذلك الباب على مصرعيه لكل من أراد مزيد التأكُّد أو الرغبة في مواصلة البحث.

[٤] لجأ الدارقطني أثناء تعديله للرواة و تجريحهم إلى استعمال عديد ألفاظ الجرح والتعديل، منها ما جاء مفرداً كقوله: "ثقة"، "ضعيف"، "مغفل"، "مجهول"، ومنها ما جاء مركباً كقوله: "ثقة مأمون"، "ثقة نبيل"، "متروك كذاب"، "كذاب دجال"، ومن المعلوم أنَّ ما اعتمده الدارقطني من ألفاظ الجرح والتعديل منها ما كان متداولاً بين أهل هذه الصناعة، وهي النسبة الغالبة، ومنها ما كان على ما يبدو خاصاً به كقوله: "فوق الثقة"، "يعتبر به"، "آية من آيات الله"، ومن لطف أبي الحسن أنَّه كان من حين لآخر يسلِّط الأضواء على مراده من بعض مصطلحاته، وموقفه من بعض الوضعيات، قال السهمي: "سألت الدارقطني: إذا قلت: "فلان لين" أيش تريد بذلك؟ قال: لا يكون ساقطاً متروك الحديث، ولكن يكون مجروحاً بشيء لا يسقط عنه العدالة. وسألته عمن يكون كثير الخطأ!! فقال: إن نهوه عليه ورجع عنه فلا يسقط، وان لم يرجع يسقط"[1].

(١) سؤالات السهمي للدارقطني، ص ٧٢.

[٥] حرص الدارقطني ـ في أغلب المواقع ـ على مَدِّ الباحث بخلاصة ما توصَّل إليه من نتائج، مجتنباً اطلاعه على اختلافات العلماء بشأن المترجم لهم، الأمر الذي جعل أحكامه ترد ـ غالباً ـ جامعة بين الدقة، والبلاغة، والإيجاز، من ذلك أنَّه سُئِلَ عن الحارث بن أبي أسامة! فقال: "اختلف فيه أصحابنا، وهو عندي صدوق"(١)، وسُئِلَ عن فليح بن سليمان! فقال: "يختلفون في فليح، ولا بأس به"(٢).

[٦] التزم الدارقطني الأمانة في نقل الأخبار، والصدق في إطلاق الأحكام، فلم يتحدث إلاَّ فيما فَقِهَ، ولم ينطق إلاَّ بما علم، قال الحاكم: "قلتُ للدارقطني: إبراهيم بن أبي عبلة! قال: الطرق إليه ليست تصفو، وهو في نفسه ثقة"(٣). وقال السلمي: "سألت الدارقطني عن ابن المظفر! فقال: "ثقة مأمون"، قلت: يقال: إنَّه يميل إلى التشيُّع؟ قال: "قليلاً بقدر ما لا يضر إن شاء الله"(٤). وسُئِلَ عن عطاء الخرساني فقال: "هو في نفسه ثقة، لكن لم يلق ابن عباس، يعني أنَّه يدلس"(٥).

ومن المعلوم أنَّ هذا التقييد له أكثر من فائدة في هذا المجال، فضلاً عن كونه يدلُّ دلالة واضحة على مدى ملازمة الدارقطني الصدق والحياد عند نطقه

(١) سؤالات الحاكم للدارقطني، ١١٥ .
(٢) سير اعلام النبلاء، ٣٤٥/٧ .
(٣) ن م س ٦ / ٣٢٤ .
(٤) ن مس ١٦ / ٤٢٠ ـ
(٥) ن م س ٦ / ١٤٠ – ١٤١ .

بالأحكام، غير متردد من ناحية أخرى في الكشف عن أوهام بعض الرواة، التي قد لا ينتبه إليها الكثيرون من غير ذوي الاختصاص، من ذلك قوله: "الوليد بن مسلم الدمشقي يروي عن الأوزاعي أحاديث هي عند الأوزاعي عن ضعفاء، عن شيوخ أدركهم الأوزاعي كنافع، وعطاء، والزُّهري، فيسقط أسماء الضعفاء مثل: عبد الله بن عامر الأسلمي وإسماعيل بن مسلم"[1]، وصرَّح في مناسبة ثانية قائلاً: "ما أعمى قلب أبي حفص بن شاهين، حمل إليَّ كتابه الذي صنَّفه في التفسير، وسألني أن أصلح ما فيه من الخطأ، فلقيته قد نقل تفسير أبي الجارود وفرَّقه في الكتاب، وجعله عن أبي الجارود عن زياد بن المنذر، وإنَّما هو اسم أبي الجارود"[2]، مشيداً في الوقت نفسه بمن عرف بتمام حفظه وأمانته، قال السلمي: "سألت الدارقطني عن أبي بكر النيسابوري! فقال: "لم نر أحفظ منه للأسانيد والمتون، وكان أفقه المشائخ، جالس المزني والربيع، وكان يعرف زيادات الألفاظ والمتون، ولما قعد للتحديث قالوا له: حدِّث، قال: بل سلوا، فسُئِلَ عن أحاديث فأجاد فيها وأملاها، ثم بعد ذلك ابتدأ فحدَّث"[3].

[٧] أطلق الدارقطني ـ في أكثر من مناسبة ـ لفظيْ تجريح على نفس الراوي مثل قوله: "ضعيف" و"متروك"، ولا يعود ذلك الى تقصير منه ـ كما قد يتوهَّم غير العارفين بمنهجه ـ إذا ما علمنا أنَّ الدافع الى ذلك سببه التزامه بوصف كل حالة بما يتناسب معها من الألفاظ، بعيداً عن إطلاق الأحكام

(١) سير أعلام النبلاء، ٩ / ٢١٩ .

(٢) ن م س ١٦ / ٤٣٣ .

(٣) ن م س ١٥ / ٦٦ .

وتعميمها دون حكمة و تبصُّر، فلقد سُئِلَ عن يوسف بن بحر التميمي فقال عنه مرة: "ضعيف"، وفي مناسبة ثانية: "متروك"[1]، وسُئِلَ عن إسحاق بن إبراهيم بن سنين، فقال في موضع: "ليس بالقوي"، وقال في موقع ثان: "ضعيف"[2]، مما يؤكد حرصه على التمييز بين كل وضعية وأخرى.

[٨] قسَّم الدارقطني الرواة الى مجموعات ثلاث:

**[أ] الثقات:** وهم الذين يحتج بحديثهم، وتقبل روايتهم ويعمل بها، ويمثل هؤلاء رواة الصحيح والحسن.

**[ب] الضعفاء:** الذين قسّمهم الدارقطني الى قسمين:

قسم لا يقبل منهم تفرُّد، ولا مخالفة إلاَّ أنَّ مروياتهم تصلح للاعتبار والإفادة منها في المتابعات والشواهد، فضلاً عن المواعظ والسير، بالرغم من عدم الاعتداد بها في الأحكام، وقد كان الدارقطني يطلق على هذا الصنف لفظ: "يعتبر به"، ومثاله أنَّه سُئِلَ عن أشعث الحداني فقال: "يعتبر به"[3]، وسُئِلَ عن أشعث بن سوار، فقال: "ضعيف يعتبر به"[4].

(١) ن م س ١٣ / ١٢٣ .

(٢) سؤالات الحاكم للدارقطني، ص ١٠٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء، ٢٨٠/٦ .

(٤) ن م س ٦ / ٢٧٥ .

وقسم لا يصلح للاعتبار، ويمثله كل من أطلق عليهم الدارقطني لفظ: "لايعتبر به"، قال البرقاني: "سألت الدارقطني عن والد وكيع! فقال: "ليس بشيء، وهو كثير الوهم، قلت: يعتبر به؟ قال: لا"[1].

**[ج] المتروكون:** ويمثلهم أولئك الذين يرد حديثهم ولا يكتب، نظراً لخطورة ما وقعوا فيه من تجاوزات، وارتكبوه في حق المروي من خروقات.

[٩] سعى الدارقطني ـ كلما دعت الحاجة ـ الى تأييد ما ذهب إليه بما توصَّل إليه غيره، فلقد سُئِلَ عن يحيى بن جعفر بن الزبرقان البغدادي فقال: "لا بأس به، ولم يطعن فيه أحد بحُجَّة"[2]، وسُئِلَ عن عبد الله بن عمر النميري فقال: "ثقة محتج به في كتاب البخاري"[3]، وسُئِلَ عن سعيد بن زيد بن درهم فقال: "ضعيف تكلَّم فيه يحيى بن القطان"[4]، مقتصراً في مناسبات أخرى على تعليل أحكامه بما توصَّل إليه بنفسه، قال السهمي: "سألت أبا الحسن الدارقطني عن بكار الذي يروي عنه المقانعي، فقال: لا يساوي شيئاً، رافضي. قلت: رافضي وحده؟ قال: لا ، يجيء بمثالب الصحابة"[5]، وسُئِلَ عن أبي العباس أحمد بن محمد بن مسروق فقال: "ليس بالقوي، يأتي بالمعضلات"[6].

(١) ن م س ٩ /١٦٩ .

(٢) سؤالات الحاكم للدارقطني، ص ١٩٥ .

(٣) سؤالات الحاكم للدارقطني، ص ١٥٩ .

(٤) ن م س ٢٣١ .

(٥) سؤالات السهمي للدارقطني، ص ١٨٦ .

(٦) ن م س ١٥٨ .

[١٠] إنَّ إلمام الدارقطني بعلم الجرح والتعديل وطول ممارسته لـه مكَّنـه في أكثر من موضع من الموازنة بين الرواة والمفاضلة بينهم، دون تعسُّـف أو محابـاة، حيث كانت أحكامه متوافقة ـ في الغالب ـ مع من سبقوه من أعلام هذا الفـن، قال السلمي: "سألت الدارقطني أيُّهما أحفظ ابن منـدة أو ابـن البيـع؟ فقـال: "ابن البيع أتقـن حفظـاً"[١]، وسُـئِلَ عـن أشـعث عـن الحسـن ثلاثـة، فقـال: "الحمراني ثقة، وأشعث الحداني يعتبر به، وأشعث بن سوار هو أضعفهم"[٢].

هذا ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ ما عُرِفَ به الـدارقطني مـن إحاطـة بـأحوال الرواة لم يحل بينه وبين إعلان عجزه عن بلوغ مراده في أكثر من مناسـبة، فلقـد سُئِلَ عن ثمامة بن الليث بن إسماعيل الصائغ فقال: "لا أعرفه"[٣]، وكذلك كان جوابه لما سُئِلَ عن أبي القاسم دلف بن عبد الله بـن الوليـد الشـيباني[٤]، فـإذا توصَّل إلى ما يخالف ذلك أسرع بنشره كما هو حاله مع أحمد بن سعيد بن زيـاد أبي عبد الله الجمال الذي سُئِلَ عنه مرة فلم يذكر له شيئاً[٥]، إلاَّ أنَّه عندما سُـئِلَ عنه في مناسبة ثانية قال: "ابن سعيد بن زياد لا بأس به"[٦].

(١) سير أعلام النبلاء، ١٧ / ١٧١

(٢) ن م ي ٦ / ٢٨٠ .

(٣) سؤالات السهمي للدارقطني، ١٨٧ .

(٤) ن م س ٢١٠ .

(٥) سؤالات الحاكم للدارقطني، ص ٨٨ .

(٦) ن م س ٢٨٩ .

[١١] لئن عَدَّ الذهبي الدارقطني من المتساهلين أحياناً في الجرح والتعديل فإنَّ ما أُثِرَ عنه من مواقف، وما صدر عنه من أحكام، تؤكِّد أنَّه كان من المعتدلين[١]، حيث خلت مصنّفاته من مظاهر التشدُّد والتعنُّت في توثيق الرواة أو التساهل في تجريحهم[٢]، أمَّا ما اتهم به من تعصُّب مذهبي نظراً لما يروى من أنَّ أقوالاً صدرت عنه بشأن المذهب الحنفي؛ فإنَّ ذلك لا أساس له، بشهادة أكثر من باحث، قال محمد لطفي الصباغ: "وقد رجعتُ الى المواطن التي استدلوا بها على تعصُّبه فما وجدتُ معهم شيئاً من الحق، فلقد كان الرجل ـ رحمه الله وجزاه خيراً ـ مثال العالم، الأمين، الجريئ على الحق، لا يخشى في الله لومة لائم"[٣].

**[ب] اعتناء الدارقطني بعلل الحديث:**

يراد بـ "العلة": "السبب الخفي القادح في الحديث، مع أنَّ الظاهر السلامة منها"[٤]، وكما تكون العلة في السند فقد تكون في المتن، أو فيهما معاً، ويُعَدُّ الكشف عن علل الحديث من أغمض العلوم وأدقها، لذا كانت معرفته من أجلها وأشرفها في عرف المحدثين، قال ابن مهدي: "لأن أتعرَّف على حديث أحبّ إليَّ من أن أكتب عشرين حديثاً عندي"[٥].

---

(١) الإعلان بالتوبيخ، ٣٥٥ .

(٢) تاريخ التراث العربي، ١/٥٠٦ .

(٣) الدارقطني : الضعفاء و المتروكون، المكتبة الإسلامية، ١٩٩٧م، ص ٣٤ .

(٤) ابن الصلاح : علوم الحديث، ص ٨١ .

(٥) السيوطي: تدريب الراوي، ٢٥٣/١ .

ونظراً لصعوبة هذا الفن لم يفلح فيه إلاَّ من كان كثير المذاكرة، تام الحفظ، ثاقب الفهم، واسع الخبرة، ولذلك لم يتكلم فيه إلاَّ الجهابذة من حُفَّاظ هذه الأُمَّة، مثل شعبة بن الحجاج، بحسبانه أول من نقَّب عن دقائق علم العلل كما ذكر ابن رجب[1]، ويحيى بن سعيد القطان (١٩٨هـ ـ ٨١٣م)، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني، و أحمد بن حنبل (٢٤١هـ ـ ٨٥٥م)، والبخاري، ومسلم، و الترمذي (٢٧٩هـ ـ ٨٩٢م)، وآخرهم الدارقطني، الذي به ختمت معرفة العلل[2]، إذ أنَّ كتابه: "العلل"، يُعَدُّ ـ بشهادة المتخصصين ـ أجمع ما صنِّف في هذا المجال[3]. قال ابن كثير مشيداً به: "وقد جمع أزمة ما ذكرنا كله الحافظ الكبير أبو الحسن الدارقطني في كتابه في ذلك، وهو أجلّ كتاب، بل أجلّ ما رأيناه وضع في هذا الفن، لم يسبق إلى مثله، وقد أعجز من يريد أن يأتي بعده، فرحمه الله و أكرم مثواه"[4].

سلك الدارقطني في كتابه: "العلل" مسلكاً خاصاً به، حيث جاء عمله في شكل أجوبة عن أسئلة كانت ترد عليه من تلميذه البرقاني، حول أحاديث استشكل أمرها عليه، وأهم ما يسترعي انتباه القاريء لهذا الكتاب ـ فضلاً عن بلاغة صاحبه في الرد عن سائله ـ نوعية المادة التي تضمنها، وما تكتسبه من

(١) شرح علل الترمذي لابن رجب (٧٩٥هـ)، مطبعة الغاني، بغداد، ص ١٥٩ .

(٢) الإعلان بالتوبيخ ، ص ٣٥٥ .

(٣) تدريب الراوي، ٢٥٨/١ .

(٤) الباعث الحثيث شرحه اختصار علوم الحديث لابن كثير (٧٧٤هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٦١ – ٦٢

أهمية لدى المتخصصين، وهو ما يكشف عن سعة علم الدارقطني وصفاء ملكته النقدية، التي بفضلها استطاع من خلال ما ورد في هذا الكتاب وفي غيره التفرُّد بمنهج كان من **أهم ما تميَّز به:**

[١] ملازمة الدارقطني الدقة والإيجاز في تشخيص العلة في غير كتاب: "العلل" على وجه الخصوص، من ذلك أنَّه وجد حديث: (الشفاعة لمن مات بالمدينة)[(١)] في مصنّف عن سفيان بن موسى، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، فأخذ الكتاب مباشرة وكتب على حاشيته: "إنما هو عن سفيان، عن موسى ابن عقبة وأيوب، وسفيان بن موسى عن أيوب خطأ"[(٢)] .

[٢] لا يكتفي الدارقطني في عديد المناسبات بالكشف عن وهم بعض الرواة، بل يصرّ على بيان الصواب، متوسعاً في إبرازه، كما هو الحال في حديث ربعي عن علي عن النبي ﷺ: (إنَّ مما أدرك الناس من كلام ...)[(٣)]، قال: "حدث

(١) أخرج حديث: (من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإني أشفع لمن يموت بها)، الترمذي في السنن ، كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في فضل المدينة برقم ٣٨٥٢ ، وأخرجه كذلك بصيغة قريبة من هذه أحمد في المسند ، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب، برقم ٥١٨٠. انظر: موسوعة الحديث الشريف ، الشريط المغنط ، الإصدار الثاني ، شركة صخر .

(٢) سؤالات الحاكم للدارقطني ، ص ١٦٢ .

(٣) أخرج حديث: (إنَّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فافعل ما شئت)، البخاري في الجامع الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، برقم ٣٢٢٤ ، كما أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب حديث الغار، برقم ٤١٦٤، و ابن ماجة في السنن ، كتاب الزهد، باب في الحياء، برقم ٤١٧٣ ، وأحمد في المسند ، مسند الشاميين ، برقم ١٦٤٨٠ . موسوعة الحديث الشرييف الشريط المغنط ، الإصدار الثاني ، شركة صخر .

به عبد الرحمن بن أبي حماد المقرئ ـ واسم أبي حماد شكيل ـ وهو من كبار أصحاب حمزة، وأبي بكر بن عياش، عن شريك عن منصور، وهم فيه والصواب عن منصور، عن ربعي، عن أبي مسعود الأنصاري". وقال: "إبراهيم ابن سعيد، عن الثوري، عن منصور، عن ربعي، عن حذيفة، وهم أيضاً". وقال أبو مالك الأشجعي: عن ربعي، عن حذيفة، وحديث أبي مسعود هو الصواب"[1]. وقال السهمي: "سمعت الدارقطني يقول: رأيتُ في كتاب محمد الباغندي حديثاً قال: ذكر سليمان بن سيف، عن حجاج، عن شعبة، عن عبد الله ابن أبي السفر، عن الشعبي، عن قرضة بن كعب، قال: سمعنا عمر، وأخطأ فيه وإنما سليمان عن حجاج، عن سيار، فأخطأ خطأ ابن الباغندي علي خطأ ابن سيف، لأنَّ ابن سيف روى عن شعبة، عن سيار، وهوغلط، وروى الباغندي عن شعبة، عن عبد الله بن أبي السفر، وهو غلط أيضاً، وإنما الصواب شعبة، عن بيان، فوهم ابن سيف في بيان فجعله سيار، وابن الباغندي حدّث من حِفْظه فغلظ"[2].

[٣] كان الدارقطني يصرُّ ـ في أغلب ردوده ـ على إتحاف سائله بفوائد حديثية ثمينة، كعزو الحديث الى من أخرجه من كبار المحدثين، كالبخاري، ومسلم، ومالك، وغيرهم من أصحاب الموسوعات الحديثية المعتبرة[3]، إلى جانب الخوض أحياناً في الجرح والتعديل بالحكم

(١) الدارقطني: العلل، ج٣ السؤال ١٥٥ .

(٢) سؤالات السهمي للدارقطني، ص ٨٨ .

(٣) العلل ج٢ س ٩٩ ، ١٢٢ ، ١٨٠ ، ٢٠١ الخ

على الرواة أحكاما مطلقة، كقوله: "مجهول"[1]، "متروك الحديث"[2]، "ضعيف"[3]، "ثقة"[4]، معرفا باسم الراوي أحياناً[5]، بل و مبرزاً كنيته أيضاً[6]، مؤكّداً ثبوت اللقي بين راوٍ و آخر، أو عدم حدوثه مع راوٍ بعينه[7]، وغير ذلك من المعلومات الثمينة، التي يحتاج الوصول إليها الوقت الكثير والجهد الكبير.

[٤] لم يتردَّد الدارقطني في الكشف عما وقع فيه بعض أقطاب هذا الفن من أخطاء جسيمة، قال السهمي: "سألتُ الدارقطني عن سويد بن سعيد! فقال: "تكلَّم فيه يحيى بن معين، وقال: حدث عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد، أنَّ النبي ﷺ قال: (الحسن والحسين سيدا شباب الجنة"[8]. قال يحيى بن معين: "هذا باطل عن معاوية، لم يروه غير سويد، وجرح سويداً لروايته لهذا الحديث". قال الدارقطني: فلم نزل نظن أنَّ هذا كما قال يحيى بن معين، وأنَّ سويدا أتى أمراً عظيماً في روايته لهذا الحديث حتى دخلت مصر سنة

(١) العلل ج١ س ١١ ، ج٣ س ١١٥ .
(٢) ن م س ج١ س ٨ ، ج٣ س ٢٩٥ .
(٣) ن م س ج٢ س ٩٤ .
(٤) ن م س ج١ س ٧ .
(٥) ن م س ج١ س ٧ .
(٦) ن م س ج٢ س ١٠١ .
(٧) ن م س ج١ س ٧ ، ج٢ س ١٤٩ ج٣ س ٣٨٦ الخ
(٨) أخرجه الترمذي في السنن ، كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ ، باب مناقب الحسن والحسين، برقم ٣٧٠١ . انظر: موسوعة الحديث الشريف، الشريط الممغنط ، الإصدار الثاني ، شركة صخر .

سبع وخمسين فوجدت هذا الحديث في مسند أبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم ابن يونس البغدادي، المعروف بالمنجنيقي، وكان ثقة، روى عن أبي كريب، عن أبي معاوية، كما قال سويد سواء، وتخلَّص سويد، و صحَّ الحديث عن أبي معاوية، وقد حدّث أبو عبد الرحمن النسائي عن إسحاق بن إبراهيم هذا"[1].

[٥] إنَّ التزام الدارقطني بالحكم على الحديث كقوله: "الصحيح ما قاله فلان"[2]، "هو الأشبه بالصواب"[3]، "فيه اضطراب من فلان"[4]، "لايثبت هذا، لأنَّ الراوي له عن فلان ضعيف"[5]. وغير ذلك من التعليقات الجيدة؛ لم يمنعه في مناسبات أخرى من التوقُّف عن الإدلاء بأي حكم، لذلك تراه يكتفي بالقول: "والله أعلم"[6]، و"الأشبه بالصواب قول لا أحكم فيه بشيء"[7]، وغير وغير ذلك من الألفاظ المعبرة عن هذا الموقف أصدق تعبير، هذا الموقف الذي لم يتهيب الدارقطني إعلانه، نظراً لما جُبل عليه من صدق، وصراحة، ووعي بخطورة دوره كمرجعية دينية، وخبير بثاني مصدر من مصادر التشريع الإسلامي، ألا وهي سنة المصطفى ﷺ.

(١) سؤالات السهمي للدارقطني، ص ٢١٧ .
(٢) العلل ج١ س ٣ .
(٣) ن م س ج١ س ٢١ .
(٤) ن م س ج٢ س ١٨٨ .
(٥) ن م س ج١ س ١٢٨ .
(٦) ن م س ج٣ س ٣٤٦ .
(٧) العلل ج٢ س ١٨٥ .

هكذا يتضح أنَّ اهتمام الدارقطنى بعلم العلل كان اهتماماً شاملاً، حيث غطى السند والمتن معاً، كما أنَّ تعليله للأحاديث كان بأكثر من سبب، مقيماً منهجه في مواجهة هذه المعضلة على قواعد صلبة، أساسها التعمُّق في تحليل المسائل بالمقارنة الجادة بين الأسانيد، والبحث الدقيق في أحوال الرواة، وتتبُّع مروياتهم، وغير ذلك مما يساعده على بلوغ مراده، مستعيناً بما وهبه الله سبحانه من قوة الذاكرة، وغزارة الحفظ، وسرعة الاستحضار، فضلاً عما أكتسبه من تجربة في هذا المجال، ولذلك كان لا بُدَّ أنْ تجد أحكامه قبولاً منقطع النظير، وتحظى مصنّفاته باهتمام كبير من طرف المتخصصين، وغيرهم من عموم الباحثين في المجال الإسلامي على وجه الخصوص، وفي مقدمتها كتابه: "العلل"، بحسبانه أحد المراجع الأساسية في علم العلل لدى كل من جاء بعد الدارقطني، وهو ما جعله يكون محل اهتمام الكثيرين نقلاً، واختصاراً، وترتيباً، فلقد أخرجه ابن حجر ملخّصاً في مصنَّف سماه: "الزهر المطول في الخبر المعلول"[1]، كما لخّصه السخاوي أيضاً في مصنَّف جليل عنوانه: "بلوغ المرام بتلخيص كتاب الدارقطني في العلل"[2].

وعموما فلقد كان الدارقطني رائداً في الصناعة الحديثية سنداً و متناً، بحسن فقهه للنصوص، واجتهاده في استنباط الأحكام وتعليلها، إلى جانب تبحُّره في تتبُّع أحوال الرواة، وتحديد مراتبهم من حيث الجرح و التعديل، فضلاً عن

(١) تدريب الراوي، ١/ ٢٥٨ .

(٢) فتح المغيث، ٢/ ٣٥٥ .

```
ERROR: undefined
OFFENDING COMMAND: i

STACK:

{userdict }
{currentglobal exch true setglobal globaldict }
true
true
```